دور كُسَيْلَة بن لمزم الأوْربي في أحداث فتح بلاد المغرب

أ. د./ محمد بن عميرة

قسم التاريخ/ جامعة الجزائر 2

مسرح الأحداث التاريخية وعلاقته بأبي المهاجر دينار وانعكاسها على علاقته بعقبة بن نافع الفهري وما نتج عن ذلك من قتل كسيلة لعقبة في تهودة، واستيلائه على مدينة القيروان، وكيفية معاملته لمن تبقى فيها من ضعفاء المسلمين، ثمّ كيفية تصدّيه للحملة الانتقامية التي أسندت الخلافة قيادتها إلى زهير بن قيس البلوي وأخيرا إلى استمرار تردّد أصداء بعض أخباره، بعد موته.

تختلف المصادر في تسمية والد كسيلة، قاتل عقبة بن نافع، فمنها من يسّميه "لهزم"، ومنها من يسمّيه "ليوم"[1] ومنها من يسميه "أقدم"، ومنها من يسميه "كمرم"[2] ومنها من يسميه "بهرم"[3]، ومنها من يسميه "لزم"[4]ومنها من يسميه "لمزم"[5] وهذه التسمية الأخيرة هي الأشهر، وهي التي يَنسب إليها المؤلّفون، عادة، كسيلة فيقال "كسيلة بن لمزم".

وينفرد ابن خلدون بإعطاء بعض المعلومات عن هذه الشّخصية في أوّل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، بمكانين مختلفين من كتاب العبر، إذ أفاد في أحدهما، وفي سياق كلامه عن تقدّم بطون أوربة البرنسية عن غيرها من بطون البربر، أنّ أميرهم، بين يدي الفتح (كان) سكردید بن زوغي... وَلي عليهم مدّة ثلاث وسبعين سنة، وأدرك الفتح الإسلامي، ومات سنة إحدى وسبعين (71هـ/ 690 - 691م)، وولي عليهم بعده كسيلة ابن لزم (لمزم) الأوربي، فكان أميرا على البرانس كلّهم، ولمّا نزل أبوالمهاجر تلمسان سنة

---

[1] المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وزهادهم وعبّادهم ونساكهم و...، نشره حسين مؤنس، القاهرة 1951، جـ 1، ص. 25.

[2] بن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط. الثانية، بيروت 1418هـ/ 1998م، جـ. 3، ص. 452.

[3] بن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط. الثانية، بيروت 1418هـ/ 1998م، جـ. 3، ص. 452.

[4] ابن خلدون، كتاب العبر، د. دار الكتاب اللبناني، 1959، جـ. 6، ص. 297.

[5] ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية والأندلس، نشره وترجمه إلى الفرنسية .Gateau A، الجزائر 1948، ص. 76 ؛ ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط. بيروت، جـ. 1، ص. 28 ؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ. 6، ص. 216.

خمس وخمسين (55هـ/ 647- 675م) كان كسيلة... مرتدا بالمغرب الأقصى، في جموعه، من أوربة وغيرهم، فظفر به أبوالمهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم، واستنقذه وأحسن إليه وصحبه[1].

وقد أفاد ابن خلدون أيضا، في ثاني المكانين المشار إليهما، وفي سياق كلامه عن تولية الخليفة يزيد بن معاوية لأبي المهاجر دينار على إفريقية، أنّ رئاسة البربر يومئذ كانت "في أوربة لكسيلة بن لمزم"، وهورأس البرانس، ومرادفه سكرديد بن رومي... من أوربة، وكان على دين النّصرانية، فأسلما لأول الفتح، ثمّ ارتدّا عن ولاية أبي المهاجر، واجتمع إليهما البرانس، وزحف إليهم أبوالمهاجر حتى نزل عيون تلمسان فهزمهم، وظفر بكسيلة فأسلم واستبقاه"[2].

وما يلفت الانتباه، عند التمعّن في النّصين السابقين، والمقارنة بينهما، هواحتواؤهما على بعض الأخطاء والتناقضات الواضحة : من ذلك أنّ شخصية سكرديد نسبت في الأول إلى زوغي (سكرديد بن زوغي) وفي الثاني إلى رومي (سكرديد بن رومي)، كما اعتُبر، مرّة، أميرا لأوربة وحُدِّد تاريخ وفاته، وتولية كسيلة منصب الإمارة بعده، بسنة 71هـ/ 690 - 691م، مع أنّ أبا المهاجر الذي قام بحملته على تلمسان ونزل عيونها سنة 55هـ/ 674- 675م، أي قبل ذلك بأربع عشر سنة، لم يجد أمامه سوى كسيلة كأمير على جميع البرانس (في النص الأول) ويذكر في (النص الثاني) سكرديد مرادفًا، أي مساعدًا لكسيلة ويختلف النّصان أيضا في نسبة كسيلة، مرة إلى لزم ومرّة أخرى إلى لمزم، وهناك كلام كثير يمكن أن يقال عن إسلام كسيلة "لأوّل الفتح" حسب تعبير ابن خلدون، بل هناك أسئلة كثيرة يمكن طرحها في هذا الموضوع، ومن أهمّها : كيف ومتى وأين حدث ذلك ؟

من الصعب الإجابة عن هذه الأسئلة، خاصة إذا علمنا أنّ مجال الفتح الإسلامي، لم يتعدّ آنذاك منطقة مُزاق (Byzacène)، وبالذّات في المناطق المحيطة بسبيطلة، من جبل القرن وسوسة وبنزرت وجلولاء. في حين أنّ مجال البرانس، كما يبدومن نص ابن خلدون، كان المغرب الأقصى، ولم تشر النّصوص إلى أيّ احتكاك لهم بالمسلمين، قبل أن تَطَالهم يدُ أبي المهاجر في نواحي تلمسان سنة 55هـ/ 674 - 675م، فهل معنى ذلك أنّهم سمعوا بالإسلام، عن بعد، فاعتنقوه طوعا ؟ وهل وقع بينهم وبين المسلمين اتّصال مَا، بطريقة ما

[1] العبر، جـ 6، ص. 296، 297.
[2] العبر، جـ 6، ص. 296، 297.

فأقنعوهم باعتناق الدّين الجديد ؟ وإذًا، لماذا ارتدّوا عنه ؟ أم أنّ كلمة الرّدة هنا استُخدمت سهوا أوخطأ ؟ وأخيرا، هل كان أبوالمهاجر قد عامله المعاملة اللائقة بشخص جدير بالثّقة، فقرّبه منه وصادقه، وهويعلم انّه مرتدّ، أي متقلّب الأهواء ؟ ولوكان الأمر كذلك، لماذا لم يُثبت التاريخ أنّ كسيلة ارتدّ، مرّة أخرى، عن الإسلام بعد قتله لعقبة بن نافع ؟ بل إنّ تأمينه لِمن بقي من المسلمين في القيروان، وعدم المسّ بهم لَيَدُلُّ على أنّ الرّجل كان لا يتراجع على مبادئه بسهولة.

والذي يمكن استخلاصه من هذه المقارنة، أنّ كسيلة أخذ يلعب دورا بارزا في تاريخ بلاد المغرب، منذ أن أَسَرَهُ أبوالمهاجر دينار بنواحي تلمسان سنة 55هـ/ 674-675م، وأسلم على يديه واستبقاه أبوالمهاجر وأحسن إليه وصحبه. وهذا ما ذكره ابن عذاري، حرفيا تقريبا، مع إشارته إلى أنّ العيون التي نزل عندها أبوالمهاجر بتلمسان، والتي زحف إليها كسيلة، كانت تُعرف في عهده (القرن 7هـ/ 13م) بعيون أبي المهاجر[1]، وهذا أيضا ما ذهب إليه ابن الأثير الذي يتحدّث عن حسن إسلامه، ويعتبره "من أكابر البربر وأبعدهم صوبا[2]" والنويري الذي يسجّل حسن إسلامه لدرجة جعلت أبا المهاجر يحدّث عقبة عنه، عند وصوله[3]، أويعرّفه محلّه ويأمره بحفظه[4] بل يترجّاه فعل ذاك.

والمفيد أنّه، عند قدوم عقبة في ولايته الثانية، أيام الخليفة يزيد بن معاوية سنة 62هـ/ 681 - 682م، "وعُزل أبوالمهاجر، [عرّفه] بحال كسيلة وأنّه من ملوك البربر، ولم يستحكم الإسلام بقلبه"[5] وبمدى تأثيره على قومه[6] ولم يقبل عقبة من أبي المهاجر نصيحته باصطناعه، بل راح يضغن على كسيلة صحابته له[7].

ويذكر المالكي خبرا مفاده أنّ أبا المهاجر دينار نَصَح عقبة، عندما كان يتهيّأ للنهوض إلى "طنجة" بأن لا يفعل، بحجّة أنّ الناس هناك قد أسلموا،

---

[1] البيان، جـ. 1، ص. 28.

[2] الكامل، جـ. 3، ص. 452 ؛ في النّص وأبعدهم صوتا، غير انّ المحقق صحح الكلمة في الهامش أنظر : ص. 453، هامش 1.

[3] En-Noweiri : op. cit., PP. 334-335.

[4] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط. دار الكتاب المصرية، القاهرة 1383هـ/ 1962م، جـ. 1، ص. 158.

[5] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط. دار الكتاب المصرية، القاهرة 1383هـ/ 1962م، جـ. 1، ص. 158.

[6] En-Noweiri : op. cit., P. 335.

[7] ابن خلدون، العبر، جـ. 6، ص. 297.

وبالتالي لم يكن له بها عدوّ، واقترح عليه إرسال وال له مع "رئيس البلاد - يريد كسيلة... فأبى عقبة إلاّ أن خرج بنفسه[1] "فنفّذ مهمّته" وقفل راجعا، وكسيلة أثناء هذا كلّه في اعتقاله يحمله معه في عسكره سائر غزواته"[2].

والذي يمكن استنتاجه، من وصف النّصوص هنا لكسيلة بمَلِك البلاد تارة، وبرئيسها تارة أخرى، يعني، في اصطلاحات ذلك الوقت، أنّه كان شيخ أورئيس إحدى القبائل الهامة، في تلك المنطقة، وليس أكثر من ذلك، كما أنّ المعلومة التي تتضمّنها نصيحة أبي المهاجر لعقبة والمتعلّقة بإسلام سكان طنجة، قبل تلك الحملة ليس لها أيّ مبرّر، فالإسلام لم يكن قد انتشر بَعْدُ، بدليل أنّ المصادر لم تتحدّث عن عثور عقبة على مسلمين، عندما وصل إليها.

ويجمع المؤرّخون على القول بأنّ عقبة، أثناء غزوته تلك، كان يستهين بكسيلة ويستخف به لكن لم يقدّموا، على تلك الاستهانة وذلك الاستخفاف، سوى دليلا واحدا، هوأنّه حدث ذات يوم في مكان ما، لعلّه "ماسة" من المغرب الأقصى[3] أن أتى عقبة بذَوْدٍ غنم وأمر بذبحها للعسكر، وأمر كسيلة بذبحها أوسلخها مع السالخين، ولما حاول كسيلة أن يدفعها إلى فتيانه وغلمانه ليتولوا ذلك عِوضا عنه، أصرّ عقبة على أن يقوم به شخصيا "وانتهره"[4] أو"قال له : "قم!"[5] أوقال له "لا!"[6]. مع الإشارة هنا إلى اختلاف رواية ابن الأثير عن غيرها من روايات المصادر الأخرى التي عالجت هذه النقطة، حيث ورد فيها أنّ عقبة أتى بغنم و"أمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السالخين"[7]، ولمّا اقترح كسيلة على عقبة دفع ذلك إلى فتيانه وغلمانه "شتمه وأمره بسلخها"[8] أي أنّ هذه الرّواية تتحدّث عن الذّبح إضافة إلى السّلخ، كما تتحدّث عن الشّتم، بدلا عن الانتهار أوالأمر بالقيام أورفض الاقتراح.

---

[1] رياض، جـ 1، ص. 26 ؛ أنظر أيضا الدبّاغ وابن ناجي : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح، ط. الثانية، القاهرة 1388هـ/ 1968م، جـ 1، ص. 53.

[2] ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص. 217.

[3] أنظر : المالكي، رياض، جـ 1، ص. 26.

[4] ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص. 297.

[5] المالكي، رياض، جـ 1، ص. 26 ؛ En- Noweiri : Op. cit., P. 335.

[6] ابن عذاري، البيان، جـ 1، ص. 29.

[7] الكامل، جـ 3، ص. 452 ؛ النجوم، جـ 1، ص. 158.

[8] نفسه ؛ النجوم، جـ 1، ص. 158.

والمهم في الأمر أنّ كسيلة قام مغضبا، وكان كلّما دَحَس يده في الشاه مسحها بلحيته، مما علِق بها من بلل، ولمّا تعجّب بعض من رآه من العرب وسألوه عن السبب أخبرهم أنّ "هذا جيّد للشعر!" غير أنّ أحد شيوخهم لم يقتنع بهذا الشّرح ونبّههم أنّ القصد من وراء هذه الحركة هوتوعّدهم[1] وبلغ ذلك أبا المهاجر فنهى عقبة عنه[2] قائلا "أصلح اللّه الأمير، ما هذا الذي صنعت ؟" [3] أوبئس ما صنعت" [4] وقال له : "بأنّ الرّسول صلى اللّه عليه وسلّم- كان يستأنف جبابرة العرب "كالأقرع بن حابس التّميمي وعُيينة بن حصن" [5] وأنت تَعْمَد إلى رجل "هوخيار قومه" [6] أو"جبّار في قومه" [7] في دار عزّه "قريب عهد بالكفر" [8]أو"بالشّرك" [9]"فتُفسد قلبَه"[10] أو"تهينه" ؟ [11] وأشار عليه بأن يوثق منه[12]أويوثّقه[13] وخوّفه فتكه، فتهاون عقبة بهذه النّصيحة و"أضمر كسيلة الغَدر"[14] ثمّ "أعلم الروم ذلك وأطمعهم"[15].

وتختلف المراجع في عرض تفاصيل ما جرى بعد ذلك من أحداث، بحيث يذكر بعضها أنّ كسيلة انتهز فرصة سانحة، أثناء انصراف عقبة من حملته، بعد حادثة السّلخ المشار إليها، فنكث ما كان عليه وفرّ من معسكر عقبة "وقام في أهل بيته وقبائله من البربر"[16] أوفي هؤلاء "وجَمْعٍ من الروم" ولما أقبلت

---

[1] المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 26 ؛ ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 29 ؛ ابن خلدون، العبر، جـ. 6، ص. 297.

[2] ابن خلدون، العبر، جـ. 6، ص. 297.

[3] المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 26.

[4] ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 29.

[5] المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 26.

[6] نفسه.

[7] ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 29 ؛ ابن خلدون، العبر، جـ. 6، ص. 298.

[8] المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 26.

[9] ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 29 ؛ ابن خلدون، العبر، جـ. 6، ص. 298.

[10] المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 26 ؛ ابن خلدون، العبر، جـ. 6، ص. 298 ؛ En- Noweiri : Op. cit., P. 335.

[11] ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 29.

[12] المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 26 ؛ ابن خلدون، العبر، جـ. 6، ص. 298.

[13] ابن الأثير، الكامل، جـ. 3، ص. 452 ؛ En- Noweiri : Op. cit., P. 335 ؛ النجوم الزاهرة، جـ. 1، ص. 158.

[14] الكامل، جـ. 3، ص. 452 ؛ ابن تغري بردي: النجوم، جـ. 1، 158- 159.

[15] نفسه ؛ En- Noweiri : Op. cit., P. 335.

[16] ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 29.

النفرة إلى عقبة، قال له أبوالمهاجر : عاجله، قبل أن يجتمع أوأن يستفحل أمره، ففعل عقبة وتنحى كسيلة أمامه[1].

ولّما سأل البربر كسيلة عن سبب هروبه، من بين يدي عقبة، رغم أنّهم في خمسين ألفا، وعدوّهم في خمسة آلا[2]، أورغم أنّهم في خمسة آلاف[3] (دون الإشارة إلى عدد أعدائهم) أجابهم قائلا : "إنّكم كلّ يوم في زيادة، وهوفي نقصان، ومدد الرجل قد افترق عنه، فإذا طلب إفريقية زَحَفْتُ إليه" وبقي يتربّص به إلى أن غشيّه في جموع غفيره بالقرب من تهودة[4]. وإذا صحّ خبر الرواية الخاصة بجواب كسيلة لأصحابه، يمكن أن يقوم دليلا على أنّ عملية الفرار تلك تمّت، بعدما بدأ أصحاب عقبة يتفرّقون عنه، وهوما يبرّر قوله "إنّكم، كلّ يوم في زيادة وهوفي نقصان" غير أنّ ما يمكن أن يحول دون الاقتناع بهذا الرّأي، هوالقرار الذي أخذه عقبه، في طُبْنَة، لّما أذن لبقية أصحابه بالانصراف إلى القيروان، وبقي مع عدد قليل منهم فقط. ممّا يرجّح أن يكون قرار كسيلة حدث بعد ذلك الإذن، اللّهم إلاّ إذا تصوّرنا أنّه حدث قبل طُبْنَة لكن عقبة لم يكترث به لقلّة عدد الفارين، أولا، ولعدم تصوّره قُدرة كسيلة على جمع تلك الحشود من الروم والبربر بالسرعة التي تمّ بها، ثانيا.

والذي يتبيّن من خلال هذه المعلومات أنّ كسيلة لم يكن في صفوف جيش عقبة، عندما حلّ بمدينة تهودة بل غادرها، قبل ذلك، لكن أثناء عودة حملته إلى القيروان بإفريقية، أي ما بين ماسة وبين طُبنة أوما بين هذه الأخيرة وبين تَهُودَة. وتؤيّد هذا الطّرح معلومات أخرى زوّدنا بها المالكي، في مكان آخر، مفادها أنّ كسيلة عندما بعث إليه الروم وأعلموه بقلّة من مع عقبة "جمع له جمعا كبيرًا من الروم والبربر، وزحف إليه ليلا حتى نزل بالقرب منه، واختلط بعسكر عقبة، حتى أصبح، فلمّا رأى ذلك عقبة، استعدّ له"[5]. والملاحظ أنّ المالكي لم يتحدّث، في سياق كلامه هذا، عن فرار كسيلة من معسكر عقبة، وما أعقب ذلك من أحداث، غير أنّ ما ذكره من زحف كسيلة ليلا حتى

---

[1] En- Noweiri : Op. cit., P. 335

[2] المالكي، رياض، جـ 1، ص. 26 ؛ ابن عذاري، البيان، جـ 1، ص. 29 ؛ En- Noweiri : Op. cit., P. 335.

[3] نفسه ؛ نفسه.

[4] En- Noweiri : Op. cit., P. 335.

[5] رياض، جـ 1، ص. 25.

نزوله بالقرب من عقبة واختلاط العسكرين، يمكن أن يقوم دليلا إضافيا على عدم وجود كسيلة مع جيش عقبة بتهودة.

وهذا عكس ما ذهب إليه ابن الأثير حيث ذكر أنّ الروم، عندما رأوا قلّة من مع عقبة من أصحابه أرسلوا إلى كسيلة وأعلموه حاله، وكان كسيلة في عسكر عقبة مضمرًا للغدر... فلمّا راسلوه، أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمّه وقصد عقبة، فقال أبوالمهاجر : عاجله قبل أن يقوى جمعه -...- فزحف عقبة إلى كسيلة فتنحى... عن طريقه ليكثر جمعه"[1].

وعند التأمّل الجيّد في عبارة نص ابن الأثير هذا، يظهر جليّا أنّه من الصّعب، أوّلا، تصوّر مراسلة الروم لكسيلة، وهوبداخل عسكر عقبة، لأنّ ذلك يَفْتَرض أن يكون لهم جواسيس فيه، وهذا ليس بالأمر الهيّن، خاصة وأنّ تواجد المسلمين هناك كان طارئا ممّا لا يتيح فرصة كافية لإجراء الاتّصالات السّلمية بين الطّرفين وتهيئة الظّروف الكافية لنسج شبكة جوسسة قادرة على تنفيذ مثل هذه المهام.

ومن الصّعب ثانيا تصوّر جمع كسيلة لأهله وبني عمومته، وهومُراقب في عسكر عقبة، وأكثر من ذلك تصورُ الكيفية التي "قصد" بها عقبة "وهوبعسكره" ممّا يدفع إلى البحث في إمكانية تعويض فِعْل "قَصَدَ" بفعل آخر مثل "فرّ" أو"ترك" أو"غادر" وفي هذه الحالة يصبح قول أبي المهاجر لعقبة "عاجله قبل أن يقوى جمعه" منطقيا، ويصبح المعنى واضحا ويوحي بفرار كسيلة من معسكر عقبة، بعد حلوله بمدينة تهودة، ثمّ راح يتجيّش استعدادا لمجابهته عسكريا.

ويتحدّث ابن خلدون، مرة، عن بقاء كسيلة في اعتقال عقبة طيلة قيامه بحملته إلى أن سرّح عساكره إلى القيروان وبقي في خف من الجنود، وعندئذ "تراسل وقومه فأرسلوا له شهودا وانتهزوا الفرصة فيه (أي في عقبة) وقتلوه ومن معه"[2] ويتحدّث، مرّة أخرى، عن تسريح عقبة لعساكر عند وصوله إلى طبنة وسيره إلى تهودة أوبادس و"لمّا نظر إليه الفرنجة طمعوا فيه وراسلوا كسيلة... ودلوه على الفرصة فيه، فانتهزها، وراسل بني عمّه ومن تبعهم من البربر، واتّبعوا عقبة وأصحابه... حتى إذا غشوه بتهودة..."[3].

---

[1] الكامل، جـ 3، ص. 452.
[2] العبر، جـ 6، ص. 217.
[3] العبر، جـ 6، ص. 298.

وما يتبيّن، من النّص، الأول أنّ كسيلة كان في عسكر عقبة ومنه تراسل مع قومه، دون إيعاز من الفرنجة أوالروم، فتربّصوا بعقبة حتى قتلوه ومن معه، ولم يشر النّص إلى مشاركة الفرنجة ولا كسيلة، فيما دار من قتال بين الطرفين ؛ أمّا ما يتبيّن من النّص الثاني فيفيد أنّ الفرنجة راسلوا كسيلة وراسل هونفسه قومه وأتباعهم من البربر، بعد خروجه من طبنة وقبل وصوله إلى تهودة فاتبعوه حتى اشتبكوا به في هذه الأخيرة، ولم يحدّد النّص مكان كسيلة عندما تمّت المراسلات بينه وبين الفرنجة، من جهة، وبينه وبين قومه وأتباعهم، من جهة أخرى، كما لم يبيّن مشاركته ولا مشاركة الفرنجة في المعركة التي دارت رحاها بين أصحاب عقبة وبين أصحابه، والأهم من ذلك كلّه أنّ ليس فيهما ما يوحي بأنّ كسيلة فرّ من معسكر عقبة.

ويتّفق البكري وصاحب كتاب الاستبصار في القول : "إنّ عقبة، عندما انتهى إلى مدينة تهودة اعتمد أواعتمده كسيلة في جيوش الروم[1]"وكان أميرها"[2] و"أقبلت إليه عساكر البربر، وقد علموا بافتراق عساكر عقبة فزحفوا إليه، فكسر عقبة وأصحابه أجفان سيوفهم..."[3].

وهذه المعلومات، إن ثبتت صحّتها، يمكن أن يستنتج منها حلّ للإشكال القائم، ويكمن ذلك في التسليم بفرار كسيلة من صفوف عقبة بَعْدَ (الإهانة) التي ألحقها به، ولجوئه بعد ذلك إلى مدينة تهودة، حيث لقي ترحيبا ومساعدة من الفرنج أوالروم فولوه عليها، للاستعانة به ضدّ الخطر الإسلامي المحدق بهم، وقد يكون عِلْم عقبة بذلك هوالذي جعله يتوجّه إليها بعدد قليل ممّن بقي معه، من أصحابه، وقد يعود أيضا، إقدامه على ذلك، إلى ما كان متوفرا لديه من معلومات، عن عدد من كان مع كسيلة من المقاتلين، ولم يكن ذلك العدد كبيرا آنذاك، بدون شكّ، غير أنّ الإفرنج أوالروم الذين كانوا يراقبون عن كثب تحرّكات المسلمين، سارعوا بتزويد كسيلة بمعلومات عن قلة عددهم وسارع، هو بدوره، بالاستنجاد بالموالين له من البربر، فأقبلوا عليه في الوقت المناسب وانضموا إلى مَن كان معه من الفرنج أوالروم، وخرج الجميع لمواجهة عقبة.

---

[1] المغرب، ص. 74 ؛ مؤلّف مجهول، ص. 63.

[2] كتاب الاستبصار، ص. 63.

[3] البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، وهوجزء من كتاب المسالك والممالك، نشره البارون دوسلان، الجزائر، 1957، ص. 74.

ولّما فاجأته كثرة عددهم "أمر أصحابه ألاّ يركب منهم أحد" [1] وفعل مثلهم و"ركع ركعتين" [2]، ولّما رأى أبوالمهاجر ذلك، وكان عقبة "أصحبه في اعتقاله"[3] "موثقا في الحديد" [4]، تمثّل بقول أبي مِحْجن الثقفي[5]

كفَى حَزَنًا أن ترتديَ الخيل بالقَنَا

وأُتْرَكَ مـــــشدودًا علَيَّ وِثَاقِيَا

إذا قُمتُ عنّاني الحديد وأُغلقت

مصارعُ من دوني تُصمّ المناديا[6]

أوكَفَا حَزَنًا أن تطعن الخيلُ بالقَنا

وأترك مشدودًا عليّ وِثاقيا[7]

إذا قمت عناني الحديد وغُلقت

مصارع أبوابٍ تُصمّ المناديا[8]

ولّما علم عقبة بما قاله أبوالمهاجر أطلق سراحه، وطلب منه أن يلحق بالمسلمين ويقوم بأمرهم ليغتنم هوفرصة الشّهادة، فلم يفعل أبوالمهاجر مُبديا، هوالآخر، رغبته في اغتنام نفس الفرصة[9] وكسر كلّ واحد منهما "جفن سيفه، وكسر المسلمون كذلك أغماد سيوفهم" [10]، أوكسر الجميع

---

[1] المالكي : رياض، جـ 1، ص. 25.

[2] المالكي، نفس المصدر، ص. 27 ؛ ابن عذاري، البيان، جـ 1، ص. 29.

[3] ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص. 298.

[4] المالكي : رياض،جـ 1، ص. 25 ؛ ابن الثير: الكامل، جـ 3، ص. 452 ؛ : En-Noweiri Op. cit., P. 335.

[5] من الصحابة، وكان يتعاطى الخمر لدرجة جعلت القائد العربي يضعه في السجن قبيل معركة القادسية فراح يعبّر بهذين البيتين من الشّعر عن أسفه لعدم تمكّنه من المشاركة في المعركة التي كانت قادمة أنظر :
Le Baron De Slane, dans En-Noweiri, Op. Cit., P. 336, note 1.

[6] ابن الأثير : الكامل، جـ 3، ص. 452 ؛ En- Noweiri : Op. cit., P. 335.

[7] ابن تغري بردي، النجوم، جـ 1، ص. 159.

[8] المالكي : رياض، جـ 1، ص. 27.

[9] ابن الأثير : الكامل، جـ 3، ص. 452 ؛ ؛ قارن : المالكي : رياض، جـ 1، ص. 27 ؛ ابن عذاري، البيان، جـ 1، ص. 29.

[10] ابن عذاري، البيان، جـ 1، ص. 29.

"أجفان سيوفهم" [1] وكان عددهم زهاء ثلاثمائة (300) من كبار الصحابة والتابعين، استشهدوا في مصرع واحد" [2] ولم يفلت منهم "إلاّ بعض وجوههم أسروا" [3] ومنهم "محمد بن أوس الأنصاري" [4] أو "محمد بن أويس الأنصاري ويزيد بن خلف القيسي... ففداهم ابن مصاب، صاحب قفصة" [5] وبعث بهم إلى زهير بن قيس بالقيروان" [6].

ويحدّد ابن عبد الحكم تاريخ وقوع هذه المعركة بسنة 63هـ/ 682-683م [7] غير أنّ ابن عذاري يحدّد المدّة التي استغرقتها جولة عقبة، في بلاد المغرب، بثلاثة أعوام وتاريخ دخول كسيلة وأصحابه، بسنة 64هـ/ 683-684م [8] فإذا أضيفت ثلاثة أعوام إلى سنة 62هـ/ 681 - 682م وهي السنة التي تحدّد أغلب المصادر وصول عقبة فيها إلى القيروان، لاستلام مهام ولايته الثانية، يصبح المجموع خمسا وستين (65) وهويمثل السنة التي يكون عقبة قد قُتل فيها بتهودة، وليس قبل ذلك، إلاّ إذا أُخذ بعين الاعتبار تحديد تاريخ آخرَ لوصول عقبة إلى إفريقية والمغرب كالذي حدّده ابن عذاري، وهوسنة 61هـ/ 680- 681م (إلى جانب سنة 62هـ) وفي هذه الحالة يمكن تحديد تاريخ تلك المعركة بسنة 64هـ/ 683 - 684م، وفي نفس الوقت تمّ استيلاء كسيلة على القيروان، مثلما حدّد ذلك ابن عذاري نفسه، وهذا موقوف، بطبيعة الحال، على صحّة معلوماته القائلة بأن تجوّل عقبة في المغرب دام ثلاثة أعوام.

ويروي المالكي عن أبي العرب أنّ زهيرا "لما بلغه ما جرى على عقبة، رعب رُعبا شديدا، وأراد الانصراف إلى مصر، فأبى "ابن حيان الحضرمي"، وقال : "لا تفعل فإنّها هزيمة إلى مصر" فكان أوّل من برز، فضرب خباءه مبارزا للعدوّ، فلما رأى زهير عزمه، عزم معه، ... فثبت زهير بالقيروان حتى زحف إليه كسيلة، في جمع عظيم من البربر والروم" [9] ونقض الروم عهدهم مع المسلمين، فخرجوا من حصونهم، وكان مع زهير ستة آلاف : ألفان من البربر، وأربعة آلاف من العرب،

---

[1] البكري : المغرب، ص. 73؛ مؤلّف مجهول : المصدر السابق، ص. 64 ؛ ابن خلدون، العبر، جـ. 6، ص. 298؛ المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 27.
[2] ابن خلدون العبر، جـ. 6، ص. 296.
[3] ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 29.
[4] ابن الأثير : الكامل، جـ. 3، ص. 452.
[5] ابن خلدون العبر، جـ. 6، ص. 299.
[6] قارن : ابن الأثير، الكامل، جـ. 3، ص. 452 ؛ ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 29.
[7] فتوح إفريقية والأندلس، ص. 74.
[8] البيان، جـ. 1، ص. 30.
[9] رياض، جـ. 1، ص. 28- 29.

ولّما وافق هذا الهجوم عيد الأضحى أرسل إلى الروم يقول لهم : "إنّا وإيّاكم أهلُ كتاب، وقد حَضَرنَا يوم نُعظّمُه، فَأَخّروا حربنا حتى يَنقضي العيدُ، فأجابوه إلى ذلك، فلمّا انقضى العيد، زحف إلى كسيلة وقاتله... فانهزم كسيلة وقُتل من أصحابه ما لا يحصى، وتفرّقوا، فأقام زهير بالقيروان يسيرا ثمّ خرج إلى مصر... وذلك سنة خمس وستين 65هـ/ 684 - 685م"[1]. أمّا بقية المصادر، بمن فيها المالكي، عند تطرّقه لنفس الموضوع، في مكان آخر، فلا تشير بتاتا إلى هذه المعلومات ولا إلى أيّة معركة يكون قد دار رحاها بين زهير وكسيلة آنذاك، بل تذكر بأنّ هذا الأخير زحف بجمع غفير من الروم والبربر[2] أومن "البربر والفرنجة" [3]على القيروان" وعظم البلاء على المسلمين، فخرجوا هاربين" [4] ولم "يكن لهم بقتاله طاقة..."[5].

وفيما يخصّ موقف زهير بن قيس الشخصي، فإنّ بعض المصادر تذكر أنّه عزم على القتال وقام في الناس خطيبا، قائلا : "يا معشر المسلمين ! إن أصحابكم قد دخلوا الجنّة، وقد منّ الله عليهم بالشهادة ! فاسلكوا سبيلهم ! يفتح الله لكم دون ذلك !"[6] فردّ عليه حنش الصنعاني بقوله : "لا ! والله ! ما نقبل قولك، ولا لك علينا ولاية ! ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين، إلى مشرقهم !" ثمّ قال : "يا معشر المسلمين ! من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني ! "فاتّبعه الناس، ولم يبق مع زهير إلاّ أهل بيته فنهض في إثره"[7].

ويذكر ابن خلدون، مرّة، أنّ زهيرا كان بالقيروان، عندما بلغه خبر هزيمة عقبة وقَتْله "فخرج هاربا، وارتحل بالمسلمين ونزل برقة[8] ولم يشر إلى عزمه على التّصدّي لكسيلة ولا إلى ما يكون قد حدث من خلاف، في صفوف جيشه، أجبره على اتّخاذ قرار الانسحاب نحوالمشرق، لكنّه يذكر، في مكان آخر، أنّ زهيرًا، زحف إلى كسيلة بالزاب، بعدما قتل عقبة هناك

---

[1] نفس المصدر، ص. 29.
[2] المالكي : رياض، جـ. 1، ص. 28 ؛ الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص. 43.
[3] العبر، جـ. 6، ص. 299.
[4] المالكي : رياض، جـ. 1، ص. 28.
[5] الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي، تونس 1968، ص. 46.
[6] ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 31 ؛ أنظر أيضا : ابن الأثير، الكامل، جـ. 3، ص. 452 ؛ En- Noweiri : Op. cit., P. 336
[7] ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 31 ؛ أنظر أيضا : ابن الأثير، الكامل، جـ. 3، ص. 452 ؛ En- Noweiri : Op. cit., P. 336
[8] ابن خلدون، العبر، جـ. 6، ص. 299

واجتمعت البربر عليه، أيام عبد الملك بن مروان فهزمه، كسيلة وملك القيروان وأخرج المسلمين من إفريقية[1].

والمهم في الأمر أنّ كسيلة، عندما أقبل بجموعه على القيروان، "لم يبق فيها إلاّ الشيوخ الهُرم والنّسوان والأطفال وكلّ مثقل بالعيال" [2]، أوبقي بها فقط "أصحاب الذراري والأثقال" [3]فـ "وثقوا بدعوة عقبة رحمه الله" [4]، أي الدّعوة التي نُسبت لعقبة بمناسبة تأسيسه للقيروان أوإعادة بنائها، والملاحظ هنا أنّ المناخ ملائم لتأليف مثل هذا الدّعاء ونسبته إلى القائد الصالح لإعطائه الوزن المطلوب، قَصْدَ رفع معنويات ضعفاء المسلمين المتبقين في المدينة، بعد مغادرة المقاتلين لها. وقد أرسل أولئك الضعفاء إلى كسيلة يسألونه الآمان فأمّنهم و"أسلموا القيروان" [5] له، فدخلها "وجلس في موضع عقبة" [6] وأقام أميرًا عليها و"على سائر إفريقية والمغرب" [7]وبقي المتخلّفون فيها "من العرب" [8] "المسلمين تحت يده" [9]مدّة "خمس سنين"[10].

أمّا زهير بن قيس الذي "ارتحل بالمسلمين، ونزل برقة"[11] حيث لحق بقصره... (و) أقام بها مرابطا"[12]والتحق به أغلب سكان القيروان[13]" وبعث يستمدّ المصريّين، ووقع له أمور إلى أن ملك إفريقية سنة تسع وستّين"[14] في حين مضى

---

[1] العبر، جـ. 7، ص. 17 ؛ قارن النجوم الزاهرة، جـ. 1، ص. 160.
[2] المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 28.
[3] الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية، ص. 46 ؛ ابن الأثير، الكامل،جـ. 3، ص. 453 ؛ ابن خلدون، العبر، جـ. 6، ص. 299 ؛ En- Noweiri : Op. cit., P.336.
[4] المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 29.
[5] أفادت بعض المصادر أنّ عقبة، عند حُلوله بالقيروان، في ولايته الثانية: ركب بصحبة وجوه عساكره، ومن معه من الصّحابة والتابعين والعُباد، فدار بهم حول مدينة القيروان، وهويدعولها قائلا : " يا رب، املأها فقها وعلما، وأعمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزا لدينك، وذلا لمن كفر بك، أعز بها الإسلام... وامنعها من جبابرة الأرض (قارن الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب، ص. 10 ؛ ابن عذاري : البيان، جـ. 1، ص. 23.
[6] المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 28.
[7] ابن عذاري البيان، جـ. 1، ص. 31.
[8] العبر، جـ. 6، ص. 299.
[9] الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقيا، ص. 46.
[10] العبر، جـ. 6، ص. 299.
[11] نفسه.
[12] ابن عذاري البيان، جـ. 1، ص. 31 ؛ أنظر : ابن الأثير، الكامل، جـ. 3، ص. 453.
[13] En- Noweiri : Op. cit., P.336.
[14] ابن تغري بردي، النجوم، جـ. 1، ص. 159.

بعض المسلمين "حتى قدموا على الخليفة يزيد فوجدوه قد توفي سنة أربع وستين (64هـ/ 683-684م)[1] ". أوأنّ زهيرا، عندما وصل "إلى لوبيا ومراقية... سنة خمس وستين (65هـ/ 684 - 685م)... وجد يزيد قد توفي وعبد اللّه بن الزبير خليفة بمكة، ومروان بن الحكم أميرا بالشام" [2] ممّا أدّى إلى "اضطراب أمر الخلافة بعض الشيء[3]" لقيام "فتنة الضحاك بن قيس مع المروانية بمرج راهط، وحروب آل الزبير"[4].

ولم تمنع تلك الظروف الصعبة التي كانت تمرّ بها الخلافة الأموية "المسلمين" من تقديم اقتراح للأمير مروان بن الحكم بإرسال" الجيوش إلى إفريقية لخلاص مَن فيها مِن إخوانهم من يد "كسيلة" [5]واتّفاق رأي الجميع على زهير بن قيس، لأنّه "كان من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين"[6]، غير أنّ تنفيذ ذلك لم يحدث إلاّ بعدما وُلّي عبد الملك بن مروان الخلافة سنة 65هـ[7]/ 684-685م وقضائه على آثار الفتنة بالمشرق[8].

عندئذ ناقش الخليفة الجديد المسألة، مرّة أخرى، مع وزرائه وأكابر المسلمين وعبّر لهم عن رأيه الخاص بأن "لا يصلح للطّلب بدم عُقبة... إلاّ من هومثله دينا وعقلا [9]!"فأكّدوا له الاقتراح الذي سبق تقديمه إلى والده مروان، والخاص بتعيين زهير للقيام بهذه المهمة بحجة أنّه "صَاحِبُ عقبة، وأعلمُ الناس بسِيرتِه وتدبيره وأولاهم بطلب دمه !"[10].

فاقتنع عبد الملك برأيهم وبعث أمرا، لزهير، وهوببرقة، يطلب منه فيه "الخروج على أعنّة الخيل" فيمن معه من المسلمين لغزوإفريقية" [11] أو"الخروج على أعنّة الخيل إلى إفريقية ليستنقذ القيروان ومن فيها من المسلمين" [12] أو"ليستنقذ مَنْ بالقيروان"

---

[1] المالكي، رياض، جـ 1، ص. 28.
[2] نفسه المصدر، ص. 29.
[3] العبر، جـ 6، ص. 299.
[4] نفسه.
[5] المالكي، رياض، جـ 1، ص. 29.
[6] نفسه.
[7] ابن عذاري، البيان، جـ 1، ص. 31.
[8] ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص. 299.
[9] ابن عذاري، البيان، جـ 1، ص. 31 ؛ En- Noweiri : Op. cit., P.337.
[10] نفسه، قارن : الرقيق القيرواني، تاريخ، ص. 47 ؛ En- Noweiri : Op. cit., P.337.
[11] المالكي، رياض، جـ 1، ص. 29.
[12] الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص. 47.

[1] فلمّا اتّصل ذلك بزهير "سرّه... وكتب إلى عبد الملك، يخبره بقلّة من معه من الرّجال والأموال" [2] أو"يعرّفه بكثرة من اجتمع إلى كسيلة من البربر والروم، ويستمدّه الرجال والأموال" [3]، فأرسل الخليفة "إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام... فسارع الناس إلى الجهاد، واجتمع منهم خلق عظيم فأمرهم أن يلحقوا بزهير" [4]وكانوا مِن وجوه أهل الشام" [5] أومن وجوه العرب" [6] وأفرغ "عليهم أموال مصر" [7].

فلمّا وصلت الخيل والأموال والرّجال[8] الذين يقدّر ابن خلدون عددهم بـ "آلاف من العرب" [9] انطلق على رأسهم، صوب القيروان. ويحدّد بعض المؤرّخين تاريخ هذا الزحف بسنة 67هـ/ 686[10]- 687م، ويحدّده البعض الآخر بسنة 69هـ[11]/ 688-689م، وهذا الأخير أقرب إلى الصواب ما دام قتل عقبة وأصحابه حدث حوالي سنة 64هـ/ 683- 684م وتَلَتْهُ سيطرة كسيلة على القيروان وإفريقية، مدّة خمس سنوات، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإذا أضيف عدد خمسة (05) إلى أربع وستين (64)، يصبح المجموع تسعا وستين (69) وهويمثّل تاريخ الزحف الذي قام به زهير بن قيس لـ "ثّأر بدم عقبة"[12].

واللاّفت للانتباه أنّ ابن خلدون، في وصفه للظّروف السياسية التي أعقبت مقتل عقبة وأصحابه، يقول : "واضطرم المغرب نارا، وفشت الرّدة في زناتة والبرانس"[13] لكنّه لا يضيف، مثله في ذلك مثل مؤرّخي المغرب الآخرين، ما مِن شأنه أن يعالج فيه تفاصيل أحداثٍ تكون قد وقعت في فترة غياب

---

[1] ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 31.
[2] المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 29 ؛ En- Noweiri : Op. cit., P.337.
[3] الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص. 47- 48.
[4] المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 29.
[5] الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص. 48.
[6] ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 31 ؛ الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص. 49.
[7] المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 29.
[8] ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 31.
[9] العبر، جـ. 6، ص. 299.
[10] الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص. 49 ؛ En- Noweiri : Op. cit., P.337 ؛ العبر، جـ. 6، ص. 299.
[11] المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 30 ؛ ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 31 ؛ الدباغ وابن ناجي، معالم، جـ. 1، ص. 57 ؛ ابن الأثير، الكامل، جـ. 3، ص. 453 يحدد ابن الأثير في مكان آخر، تاريخ تولية زهير بن قيس بسنة 62هـ (الكامل، جـ. 4، 135).
[12] العبر، جـ. 6، ص. 299.
[13] نفسه.

المسلمين عن المنطقة، ممّا يدفع إلى الاعتقاد بأنّ مقصوده، بالجملتين السّالفتي الذّكر، هوخروج بلاد المغرب عن سيطرة المسلمين، وبقاؤها تحت سيطرة كسيلة، لا غير.

ولما اقترب زهير من القيروان "نزل بقرية يقال لها "قرشانة"... فبلغ ذلك كسيلة" [1] فبيّن أنّه لا يهابه ولا يخاف منه" [2] وكان معه خلق عظيم من الروم والبربر[3] "أضعاف ما مع زهير مضاعفة" [4] أوأنّه جمع... البرانس وسائر البربر" [5] فاحتفل وجمع وحشد" [6] رجاله وراح يجتمع بأشرافهم وأكابرهم، أي بقادتهم ليشاورهم في أمر الخروج إلى موضع مَمّس، لانتظار العدوهناك، بحجّة وجود عدد كبير من المسلمين بمدينة القيروان، لهم عليه عهود، فلا يستطيع الغدر بهم، وفي نفس الوقت فهولا يثق في حيادهم، بعد نشوب القتال بينه وبين إخوانهم في الدين، وعبّر لهم عن خشيته من أن يكونوا عليهم آنذاك[7].

وشرح لهم الأهمّية الإستراتيجية للمكان المقترح، والمتمثّلة في توفر المياه به لما يحتاجه جيشهم الكبير، وفي قربها من جبال وشَعْرَاء يمكن اللجوء إليها، والاحتماء بها في حالة الهزيمة ؛ أمّا في حالة الانتصار فيسهل مطاردة الأعداء منها، وملاحقتهم إلى طرابلس، وقطع دابرهم أوآثارهم من إفريقية[8]. فوافقوه الرّأي وارتحل بهم إلى ممس ونزلها، في حين كان زهير ينتظر "أن يخرج إليه من القيروان"[9].

ويفيد المالكي أنّ زهيرا عندما علم بأمر هذا الخروج "نزل بالقيروان وأقام بها ثلاثة أيام، حتى استراح وأراح، وأراح أصحابُه خيلهم، وزحف إلى كسيلة يوم الأربعاء صباحا، فأشرف على العسكر في آخر النّهار"[10] ؛ أمّا

---

[1] المالكي، رياض، جـ 1، ص. 30.
[2] ابن عذاري، البيان، جـ 1، ص. 32.
[3] المالكي، رياض، جـ 1، ص. 30 ؛ الرقيق، المصدر السابق، ص. 49.
[4] ابن عذاري، البيان، جـ 1، ص. 32.
[5] ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص. 299.
[6] الأثير، الكامل، جـ 3، ص. 452.
[7] المالكي، رياض، جـ 1، ص. 30 ؛ الرقيق، المصدر السابق، ص. 50 ؛ ابن الأثير، الكامل، جـ 3، ص. 453 ؛ ابن عذاري، البيان، جـ 1، ص. 32.
[8] الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص. 50 ؛ المالكي، رياض، جـ 1، ص. 30 ؛ ابن الأثير، الكامل، جـ 3، ص. 453 ؛ ابن عذاري، البيان، جـ 1، ص. 32.
[9] المالكي، رياض، جـ 1، ص. 30.
[10] نفسه.

بقية المصادر فتنفي نزول زهير بالمدينة والإقامة بها بل يجعل الرقيق القيرواني نزوله "على باب سالم ... حتى استراح وأراح من معه، وزحف في اليوم الرابع، ووقف على كسيلة وعسكره آخر النّهار" [1] ويتّفق كلّ من ابن الأثير والنّويري على القول بإقامته ظاهرَها نفس المدّة أي ثلاثة أيام[2]، وهونفس ما ذهب إليه ابن عذاري، تقريبا، بقوله "نزل عليها... ولم يدخلها، وفي اليوم الرابع رحل عنها حتى أشرف على عسكر كسيلة في آخر النّهار"[3].

وتشير بعض المصادر، بكلّ وضوح، إلى مبيت الناس تلك الليلة "على مصافهم" [4] و"وقفت خيول القوم، بعضهم إلى بعض، طوال الليل"[5]، وفي الصباح "صلى" [6] "...غِلسًا" [7] أو"مُغلِسًا" [8] ثمّ زحف إلى عدوّه. غير أنّ بعضها الآخر، ومنها ابن الأثير والنويري، لا يشير إلى وقت الوصول المتأخر من النهار، ولا إلى المبيت على المصاف، بل تتحدّث عن بدء المعركة مباشرة مع وصول زهير إلى عدوّه، "فلمّا قاربه نزل وعبّى أصحابه وركب إليه والتقى العسكران" [9]لكن الأول منهما يتحدث عن اشتداد القتال وكثرة القتل "في الفريقين فلم يزالوا كذلك أكثر النهار ثمّ... انهزم كسيلة"[10]. وعبارة "أكثر النهار" هنا توحي بأنّ المعركة بدأت في أوّله وإذا كان الأمر كذلك فهويعني أنّ الوصول المتأخّر المشار إليه، وكذلك المبيت على المصاف حَدثًا فعلا، فلعلّها لم تشر إلى ذلك من باب اختصار الكلام فقط.

ويُجمع المؤرّخون على القول بأنّ المعركة بين الفريقين كانت شديدة، وأنّ القتل كَثُر في صفوف الفريقين، لدرجة جعلت الناس ييأسون من الحياة لكن النّصر كان حَليف المسلمين، في آخر النّهار، دون تعرّضها للحديث عن أسبابه، وراحت تركّز كلامها، بعد ذلك، عن قتل كسيلة نفسه بمَمّس، مع الكثير

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص. 50- 51.
[2] الكامل، جـ. 3، ص. 453 ؛ En- Noweiri : Op. cit., P. 337.
[3] البيان، جـ. 1، ص. 32.
[4] الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص. 51 ؛ المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 30.
[5] الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص. 51.
[6] ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 32.
[7] المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 30.
[8] الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص. 51.
[9] الكامل، جـ. 3، ص. 453 ؛ أنظر أيضا : En- Noweiri : Op. cit., P. 337.
[10] نفسه.

من أصحابه، وملاحقة من بقي منهم، بعد ذلك[1]، ولحق العرب "كثيرا منهم بمزرعة" ملمجنّة"[2]... أو"اتّبعوهم... إلى مرماجنّة" [3] وجدّوا في طلبهم حتى وصلوا وراءهم إلى نهر ملوية من المغرب الأقصى أومن طنجة[4].

وفي تلك الوقعة "ذهب" أو"هلك" رجال الروم والمشركون من البربر وفرسانهم وأشرافهم، ففزع منه (زهير) أهل إفريقية، واشتدّ خوفهم، فلجأوا إلى الحصون والقلاع" [5] وبمعنى آخر، وحسب تعبير ابن خلدون، فقد "ذل البربر وفُنيت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم واضمحلّ أمر الفرنجة فلم يعُد، وخاف البربر من زهير ومن العرب خوفا شديدا فلجأوا إلى القلاع والحصون"[6]. و"خضدت ؟ (أيضا) شوكة أوربة، من بينهم، واستقرّ جمهورهم بديار المغرب الأقصى، فلم يكن بعدها لهم ذِكر، واستولوا على مدينة وليلى بالمغرب...، ما بين موضع فاس ومكناسة، بجانب جبل زرهون، وأقاموا على ذلك، والجيوش من القيروان تدوّخ المغرب مرّة بعد أخرى[7]، دون أن يكون لهم أي دور فيما جرى، بعد ذلك، من أحداث عملية الفتح.

مع ملاحظة أنّ ابن خلدون الذي أورد المعلومات المسجلة هنا، كنتيجة للهزيمة التي تلقاها كسيلةُ على يد زهير، والتي يتّفق مع بقية المصادر في وقوعها، ذَكَرَ، في مكان آخر، أنّ القائد الذي أخرجه الخليفة عبد الملك في عساكر المسلمين، "فهزموا البربر وقتلوا كسيلة واسترجعوا القيروان وقرطاجة وإفريقية[8]، هوحسان بن النعمان، وقد نتج عن تلك الهزيمة أنْ "فرّ بقية الإفرنجة والروم إلى صقلية والأندلس، وافترقت رياسة البربر في شعوبهم"[9].

وتُذكّر معلومات ابن خلدون التي يتّضح فيها تردّده هنا، في تحديد المسؤول العربي الذي قاد تلك العمليات، بتردّد ابن عبد الحكم، في روايتين

---

[1] الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص. 51- 52 ؛ المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 30 ؛ ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 32 ؛ ابن الأثير، الكامل، جـ. 3، ص. 452، الهامش 3.
[2] الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص. 52.
[3] الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص. 52.
[4] الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص. 52 ؛ المالكي، رياض، جـ. 1، ص. 30 ؛ ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 32 ؛ ابن خلدون، العبر، جـ. 6، ص. 300.
[5] الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص. 52 ؛ قارن : ابن الأثير، الكامل، جـ. 3، ص. 453 ؛ ابن عذاري، البيان، جـ. 1، ص. 32 ؛ En- Noweiri : Op. cit., P. 337.
[6] ابن خلدون، العبر، جـ. 6، ص. 218.
[7] نفس المصدر، ص. 300.
[8] العبر، جـ. 7، ص. 7.
[9] نفسه

مختلفتين، حيث أسند مرّة مسؤولية إخراج زهير ضدّ كسيلة، إلى عبد العزيز بن مروان، بعد توليته على مصر[1]، وهوما يشاطره فيه البلاذري الذي يحصر مهمة عقبة بإفريقية في فتح تونس[2]، دون أيّة إشارة إلى ما كان بينه وبين كسيلة، من أحداث، ممّا يدلّ على عدم دقّته في تناول هذا الموضوع، ويسندها، في مكان آخر، إلى حسّان بن النّعمان، مضيفا أنّ مقتل كسيلة كان سنة 64هـ[3]/ 685- 684م. فعند التأمّل الجيّد لما ذكره المؤرّخان السّالفا الذكر، من تفاصيل، يتبيّن أنّ ما قاله الأوّل منهما "عن استيلاء حسان على "قرطاجنة" "وفرار بقية الإفرنجة والروم إلى صقلية والأندلس"، إنّما حدث في الحملة التي سيقوم بها حسان لاحقا، ويتبيّن كذلك أنّ سنة 64هـ/ 683-684م الذي حدّد بها الثاني تاريخ مقتل كسيلة، توافق تاريخ مقتل عقبة في المصادر الأخرى، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ممّا يدلّ على الخلط الذي حدث لكليهما في ترتيب تفاصيل وقوع تلك الأحداث كرونولوجيا.

وللعلم، أنّ أخبار كسيلة لم تختف نهائيا بعد ذلك، حتى في بعض المصادر الموثوق بها، فهذا أبوعبيد البكري، في وصفه لمدينة طبنة، يتحدّث عن هروب ملكها كسيلة منها عندما فتحها موسى بن نصير[4]، بعد حوالي عشرين سنة من معركة ممسّ، وذاك ابن قتيبة، في حديثه عن فتح سجوما وما حولها، في نفس تلك الفترة، وبالضبط، سنة 83هـ/ 702-703م، يقول : "إنّ ملك المنهزمين بها هوكسيلة بن لمزم وأنّ سبيهم الذي بلغ مائتي ألف رأس، كان فيه بنات كسيلة وقد اختار مروان بن موسى لنفسه إحداهنّ[5]، والمتأمل في كلام هذين المؤلفين يتهيّأ له وكأنّهما اعتبرا كلمة "كسيلة : لقبا يعني ملكا وليس اسما لشخص معيّن، عكس المصادر الأخرى التي حدّدت وفاة شخص كسيلة بن لمزم بسنة 69 وبسهل ممس، كما تبيّن آنفا.

من الثابت، إذا، أنّ بُروز كُسيلة بن لمزم، الأوربي البُرنسي، على مسرح أحداث فتح بلاد المغرب، لأوّل مرّة، كان سنة 55هـ/ 647- 675م، عندما وقع أسيرا، في ضواحي تلمسان، بيد القائد أبي المهاجر دينار الذي قرّبه منه، بعدما

---

[1] فتوح إفريقية والأندلس، ص. 74.
[2] فتوح البلدان، جـ. 1، ص. 270.
[3] نفس المصدر، ص. 76.
[4] المغرب، ص. 50.
[5] الإمامة والسياسة : علّق عليه ووضع حواشيه خليل منصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1418هـ/ 1997م، جـ. 2، ص. 232- 233.

اعتنق الإسلام على يديه، وصادقه، ممّا جعل عقبة بن نافع الذي عُيّن، بعد ذلك، للمرّة الثانية، على ولاية المغرب، يعامله معاملة خصمه ومنافسه على الولاية، أبي المهاجر، تطبيقا لقاعدة صديق عدوّي عدوّي.

فاعتقل عقبة الرّجلين، أبا المهاجر وكسيلة معًا، واصطحبهما معه، في حملته التي وصل فيها إلى البحر المحيط لكن كسيلة تمكّن من تخليص نفسه والفرار، بعد ذلك، أثناء العودة من تلك الحملة، وانتهز فرصة انفصاله، مع القليل من أصحابه، عن بقية الجنود، فحاصره وقتله ثمّ توجّه إلى القيروان، قاعدة بلاد المغرب آنذاك، فلم يعثر فيها إلاّ على من لم يستطع الفرار من العرب المسلمين فأمّنهم وبقي الحاكم الفعلي للبلاد إلى أن قام زهير بن قيس البلوي بحملة انتقامية عليه، بعد خمس سنوات من ذلك، فقتلهُ وهزم أصحابه، لكن أصداء أخباره استمرّت مع ذلك في بعض المصادر التي وقع لها على ما يبدولبس في تاريخ أحداث البلاد.

بيبليوغرافيا:

أولا- بالعربية:

(1)- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط. الثانية، بيروت 1418هـ/ 1998م.

(2)- البكري، **المغرب في ذكر إفريقية والمغرب**، وهوجزء من كتاب المسالك والممالك، نشره البارون دوسلان، الجزائر، 1957.

(3)- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط. دار الكتاب المصرية، القاهرة 1383هـ/ 1962م.

(4)- الدبّاغ وابن ناجي: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح، ط. الثانية، القاهرة، 1388هـ/ 1968م.

(5)- ابن خلدون، كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني، 1959.

(6)- ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية والأندلس، نشره وترجمه إلى الفرنسية A Gateau. الجزائر، 1948.

(7)- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط. بيروت.

(8)- القيرواني الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي، تونس، 1968.

(9)- المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وزهادهم وعبّادهم ونساكهم و...، نشره حسين مؤنس، القاهرة، 1951.

(10)- مؤلّف مجهول: الاستبصار، كتاب الاستبصار.

(11)- **الإمامة والسياسة**، علّق عليه ووضع حواشيه خليل منصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1418هـ/ 1997م.

ثانيا- بالفرنسية :

(12)- Slane Le Baron De, En-Noweiri-dans مؤلّف مجهول: الاستبصار، نشره تحت عنوان:

-(13)En-Noweiri :Conquête de l' Afrique septentrionale par les mus. Et histoire de ce pays, sous les emirs arabes, dans Ibn-Khaldoun ,hist. Des Berbers et des dynasties mus. De l'Afrique septrionale ,traduite de l'arabe par le baron de Slane ,Paris.1968 ,

-(14)Fagnan E., L'Afrique septentrional au XIIe siècle de notre ère Constantine 1900.